الأسس الرمزية والأسطورية لنشأة الأخلاق في سيكولوجيا فرويد

د. علي أسعد وطفة

«توجد عقدة أوديب في أصل الحضارة الغربية»

(جاك لاكان)

يكمن جانب كبير من عبقرية فرويد في قدرته الهائلة على توظيف الطاقة الرمزيـة للأساطير في إضاءة جوانب مظلمة من النفس البشرية، واستجواب مناطـق عصيّة على الفهم في تضاريس الحيـاة الإنسانية، وتتجلى ومضات هذه الطاقـة الإبداعية في قدرته على استنفار الطاقـة الرمزية للأساطير والاستناد إليها في تفسير خفايا الحياة الإنسانية واكتناه أسرارها.

* أديب وكاتب وأستاذ جامعي سوري مقيم في الكويت.

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

في ظلال هذه المنهجية الإبداعية، يوظف فرويد الدلالات الرمزية الأسطورية لتفسير النشأة الأولى للنظام الأخلاقي، فيلجأ إلى حيّزين أسطوريين، يتمثل الأول في أسطورة «قتل الأب وأكله» بطابعها الأنتروبولوجي، ويتمثل الآخر في أسطورة أوديب بتجلياتها السيكولوجية. يستلهم فرويد رمزية هاتين الأسطورتين في مسعاه لاستكشاف ديناميات التَشَكُل التاريخي للأخلاق والحضارة الإنسانية. وهو في الوقت الذي يوظف فيه الأسطورة الأولى (الوليمة الطوطمية: مقتل الأب والتهامه) لتفسير منشأ الأخلاق الإنسانية بمضامينها الاجتماعية والتاريخية، يوظف الثانية (الأسطورة الأوديبية: مقتل الأب وانتهاك المحرم) في تفسيره لنشأة الأنا الأعلى والقيم الأخلاقية للأفراد سيكولوجيا وتربويا. ولا يخفى على المتأمل وجود تجانس كبير بين الدلالات الرمزية للأسطورتين فكلتاهما ينطلقان من موجبات الخطيئة الأصلية (قتل الأب) واللعنة الأبدية (غشيان المحارم) في تفسير ولادة الأخلاق والقيم والضمير الأخلاقي.

في مضامين هذه الصورة العبقرية للتوليف الفرويدي بين الأسطورة والرمز والواقع، تقع محاولتنا للتأمل في الكيفيات التي يوظفها فرويد في دراسة الأخلاق والحضارة. فالرحلة في الإبداعات العبقرية لفرويد، تضع القارئ في دائرة الشعور بالرهبة والرغبة والتشوق المفعم بالإثارة الوجدانية. فالرموز المكتنزة في الأساطير تمتلك طاقة معرفية هائلة أحسن فرويد توظيفها واستثمارها في استكشاف جوانب مظلمة وغامضة من الحياة الإنسانية، وقد أجاد بحسّه العبقري المعهود في توظيف مقولات التابو Tabou والطوطم Totem في فهم الطبيعة البشرية واستجلاء غموضها، وأكد عبر تقصياته المذهلة هذه أنه يمكن للإنسانية أن تستلهم الحكايات والمخطوطات والرموز والأساطير لاستكشاف المكنونات الدفينة للتاريخ الإنساني إرواءً للظمأ البشري المتّقد إلى المعرفة.

الوليمة الطوطمية:

يستلهم فرويد أسطورة القتل الأول (الوليمة الطوطمية)[1] في استكشاف المنشأ الأول للأخلاق الإنسانية، وتفيد هذه الأسطورة أن جماعة من البدائيين في الغاب الأول، يحكمها أب ذكر قوي، كان قد استحوذ نساء القبيلة جميعهن، وفرض نظاماً من التحريم الجنسي الصارم على أبنائه وأفراد العشيرة، وتحت تأثير القمع المستمر، والكبت الشديد لدوافع الأبناء وميولهم الجنسية،

غضب الأبناء، وثاروا على أبيهم، فقتلوه والتهموه، وعلى الأثر، وقع الأبناء في صراع مميت على تركة الأب، فدبت الفوضى بينهم، ونشب الصراع المميت، فاقتتل الأخوة، وسفكت الدماء، في ظل غياب سلطة الأب وهيبته وانهيار النظام الذي وضعه.

يتناول فرويد الطابع الرمزي لهذه الأسطورة، ويعمل على تفكيك عناصرها الرمزية على نحو سيكولوجي. فالأبناء -كما يرى فرويد في هذه الأسطورة- كانوا يناصبون أباهم المتسلط الكراهية والعداء، نظرا للتحريم الجنسي الصارم الذي فرضه عليهم، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يدينون له بالحب والولاء والتقدير والإعجاب، إذ كان الأب لهم نموذجا وقدوة، يتماهون به، وينشدون صورته. وعندما وضعوا نهاية مأساوية لوجوده (=قتله)، كابدهم الندم، وأشقاهم الألم، فأقاموا تحت تأثير هذا الندم والحزن طقوسا «طوطمية»[٢] تكريما للأب، وتكفيراً عن إثمهم العظيم، وتأسيساً على هذا الموقف التكفيري أسسوا نظام التحريم، ثم شيدوا نظاما من المقدسات، التي حظروا بموجبها على أنفسهم ما كان الأب قد حرّمه عليهم في سابق عهدهم، فنشأ التحريم، وولد المقدس، وظهر القانون، وجرت العادات والتقاليد والأعراف على تأصيل هذه المبادئ التحريمية فنشأت القيم وظهرت الأنظمة الأخلاقية في المجتمع.

ينطلق فرويد في تأكيده على هذا التصور الأسطوري من نتائج الأبحاث الأنتروبولوجية حول نظام التحريم في القبائل البدائية في استراليا، حيث عُرِفَ عن البدائيين عيشُهم في جماعات صغيرة، يسيطر عليها أب ذكر قوي، وقد أبانت هذه

الدراسات أن هـذه القبائل البدائية تعتمد نظام تحـريم صارم، يُحظـر بموجبه على أفـراد القبيلة إقامة علاقـات جنسية بين الجنسين في داخل القبيلة (مع أبناء الطوطم الواحـد)، حيث تكون أي امـرأة في القبيلة محرمـا على أي رجل فيها، وكذلك هو حال الرجل.[٣]

وقـد بينت هذه الدراسات أيضاً أن كل جماعـة كانت تختص بطوطـم (حيوان أو طـير)، وهذا الطوطم يرمـز إلى روح الأب الأول للعشـيرة التي تقـوم بحماية القبيلة، ودفع الخطر عنها؛ ومن هذا المنطلق يحتل «طوطم» القبيلة مرتبة التقديس، ويرقى إلى درجة التحريم، حيث يشـكل «تابو» القبيلة ومقدسهـا[٤]، إذ لا يجوز قتلـه أو صيده أو أكله، وبموجـب هذه العقيـدة الطوطمية، يلتـزم أبنـاء القبيلـة أو العشـيرة، التزاماً مقدّسـاً، بألاّ يقتلوا طوطمهم أو يأكلوه على مستوى النوع.[٥]

ولكن هذا التقديس للطوطم ليس نهائياً ومطلقـاً إذ تتخللـه بعض الاستثنـاءات والخروقات، وهذا ما بينته بعض الدراسات الأنتروبولوجيـة الجاريـة، إذ اتضـح أن للعشـيرة طقوسا إباحيـة، تجري في أوقات معينة، ولفترة معينة، يستباح فيها «الطوطم» المقدّس بصـورة احتفائيـة، في مناسبات معيّنة، وفي هذه الطقوس ينتهك الطوطم ويؤكل لحمه الذي سبق تحريمه. وتأتي هذه الاستباحـة في سياق وظيفي تفرضه طبيعة الحياة وشروطها القاسية في هذه المجتمعات البدائية.

تشـكل هـذه الأسطورة (مقتـل الأب وأكلـه) المـادة الأساسية للتحليـل الرمزي عنـد فرويد، حيـث يتناول رموزهـا تناولاً وظيفياً لتفسير نشأة الأخلاق في المجتمعات الإنسانية البدائية القديمة. وفي مجرى هذا التحليل، يـرى فرويد، أن قتـل الأب وأكله قـد أسس لحالـة من التناقـض الوجداني الهائـل الذي تمثّـل في الثورة علـى الأب والنـدم على قتله، فتحـول إحساس الأبناء القتلة بالذنب إلى عذاب مرير، ترجموه إلى طقوس «طوطمية»، اتخذت مع الزمن طابعاً دينياً مقدسـا، وتحولت تدريجيا إلى أنظمة أخلاقيـة تحريمية تحـوّل فيهـا الطوطم الأبـوي إلى مقدس ديني، وقـد أسس هذا المقدس لاحقا للعرف والقانون والأنا الأعلى الأخلاقي في المجتمع.[٦]

يحـاول فرويـد، عـبر تحليلـه هذا، استكشـاف الطاقـة الرمزيـة المكتنزة في «الوليمـة الطوطميـة» فالوليمـة (أكل الأب) تأخـذ دلالـة «الخطيئـة الأصلية»، وهي الخطيئـة الأزلية المتحولة إلى هاجس

وجودي ما فتئ يقض مضاجع الإنسان في سعيه الدؤوب للتحرر من التبعات الأخلاقية للخطيئة الأزلية والتكفير عنها[٧]. لقد قرر الأبناء في هذه التراجيديا الإنسانية التنازل التدريجي والمنظم عن إشباع ميولهم البدائية الوحشية لصالح النظام الاجتماعي، وقد شكل هذا التنازل -كما يرى فرويد- أساس النظام والعدالة والقانون والقيم الأخلاقية في المجتمعات الإنسانية القديمة، وقد شكلت هذه الأنظمة -وفقا لهذه الرؤية- مهد الحضارة ومنطلقها الإنساني، وذلك لأن الحضارة لا تقوم إلا على مبدأ الإيثار ونكران الذات وتنظيم الإشباعات الغريزية تنظيماً اجتماعياً أخلاقياً يراعي مبادئ العدالة والحق والخير والجمال.

يبين فرويد، في هذا السياق، أن التخلي الإرادي الواعي عن الإشباع المباشر للرغبات الطبيعية والميول البدائية، ولاسيما الجنسية منها، قد أصبح بديلا لعملية المنع القسري الخارجي (سلطة الأب المقتول)، ومن ثم فإن الضبط الذاتي لعملية إشباع الرغبات والميول قد أسس للمعايير والقيم الأخلاقية في المجتمع، وعلى هذا النحو تشكلت الحضارة الإنسانية، وبُنيت صروحها، كنتيجة طبيعية لانتصار الأخلاق في مواجهة الدوافع الهمجية الأولى.[٨]

وفي مسار التفكيك الرمزي للوليمة الطوطمية، نجح فرويد في استكشاف الأسباب التي تجعل أفراد القبيلة يستبيحون طوطمهم في أوقات معينة وطقوس محددة، ومن أجل هذه الغاية، لجأ إلى تفسير هذه الظاهرة على نحو سيكولوجي، إذ يعتقد بأن هذه الاستباحة الجديدة لرمز الأب، هي استعادة لذكرى فعلتهم الإجرامية السابقة ضده، ولأنها حادثة وجودية مؤلمة، يجب أن تبقى في الذاكرة من أجل تعزيز الدورة الحيوية للقيم والأعراف المتصلة بالتحريم وتجديدها، وذلك أيضاً من أجل تنمية الشعور بالندم والألم والتكفير، على نحو يجعلهم يرسخون إيمانهم من جديد بكل القيم الأخلاقية التي نجمت عن مبدأ تحريم المحرم وتقديس الأب. فالإنسان هنا، يكرر جريمة قتل الأب من جديد والتهامه بصورة رمزية (قتل الطوطم والتهامه)، لأن مثل هذه الاستعادة الرمزية للقتل تؤجج الشعور بالندم والتكفير من جديد، وتمكن الإنسان من تأصيل النظام الأخلاقي وتعزيز مساراته.

وفي دائرة هذا التفسير الرمزي لنشأة الأخلاق، يركز فرويد على مفهوم «التابو» Tabou، أي المحرم والممنوع والمقدس، الذي يولد تحت تأثير مشاعر الخوف من

الأرواح والقوى الطبيعيـــة المدمرة. فالتابو Tabou يُستبطـــن كطاقـــة لاشعوريـــة في أعمـــاق العقل الباطن، فتعمـــل على ضبط التصرفات الغرائزية لدى الإنسان وتنظيمها، وقـــد تجلى هـــذا التابو لـــدى البدائيين في نوعين من التحـــريم الأساسي: تحريم قتل «الطوطم» أكان حيواناً أو نباتاً أو جماداً من جهة، ومن ثمّ تحريم العلاقات الجنسية بين الأفـــراد الذين ينتمون إلى طوطم واحد من جهة ثانية.

وفي ســـياق هذا التحليـــل، يقدم فرويد إشارات واضحة إلى أهمية الأحلام ودورها في نشـــأة الديـــن والمحرم عنـــد البدائيين، فكان تجلـــي الأموات في أحـــلام البدائيين عاملاً كافيـــاً لترسيخ فكرة خلـــود الأرواح وقدرتها على التأثير. فعندما قُتل الأب ظهر لأبنائـــه في أحلامهم، وقد أثار هذا الظهور خوفهم وفضولهم، فبـــدؤوا بالصلوات على روحـــه خوفاً مـــن غضبه ونقمتـــه عليهم، ويتجلى هـــذا الخوف مـــن الأرواح بوضوح كبير وفقا للملاحظات الأنتروبولوجية التي أجريت حول القبائل البدائية، إذ تُبين بعض الدراسات الأنتروبولوجية أن محاربي «جزر التيمـــور» العائديـــن مـــن انتصاراتهم على العـــدو، محملين برؤوس أعدائهم المقطوعة، يقومـــون بتقـــديم الأضاحي لتهدئـــة أرواح أعدائهم، فيطلبون منها الغفران في طقوس غريبـــة، إذ يخاطبون فيهـــا أرواح الضحايا قائلـــين: «لا تغضبوا منا يا أخوتنا، تلك هي مشيئـــة الحـــرب والقتال، إنـــه القدر الذي قضى بـــأن تكون رؤوسكم مقطوعة اليوم لا رؤوسنا، وهـــو القدر الذي شاء لنا أن ننتزع النصر، ولولا ذلك لكانـــت رؤوسنا اليوم في مـــكان رؤوسكـــم، وإننا نحتفي بكـــم اليوم، ونقـــدم لكم هذه القرابـــين لتبقى أرواحكم في هـــدوء وســـلام، فاقبلـــوا منـــا صلواتنا وأضاحينـــا، واجعلونا نعيش بهدوء وسلام». ثـــم يبدأ المحاربـــون بالبكاء علـــى أعدائهم مرددين «لماذا كنتم أعداءنا؟ ألم يكن بإمكاننا البقاء أصدقاء؟ كي لا يُهدر دمكم ولا تُقطع رؤوسكم؟».[٩]

اللعنة الأوديبية:

بينما يوظف فرويد «الوليمة الطوطمية» لتفسير المنشأ التاريخي للحضارة، يلجأ إلى الأسطـــورة الأوديبيـــة في تفســـيره لعمليات التشكل الأخلاقي في مستوياته السيكولوجية والتربوية. وتأخذ «أسطورة أوديب» ترجمتها السيكولوجيـــة لدى فرويد في مفهوم «عقدة أوديـــب»، وهي صورة أخـــرى لوليمة رمزية تأخذ مجراهـــا في العمليـــة التربوية، حيث يشكل فيهـــا دم الأب المقتول، بما يستوجبه القتل من ندم، طاقة جديـــدة لتوليد القيم والأخلاق والأنا الأعلى.

و«أوديب» Oedipe ملحمة أسطورية يونانية، رواها سوفوكليس تحت عنوان «الملك أوديب» عام ٤٩٦ قبل الميلاد، وتروي هذه الأسطورة: أن العرّاف أنبأ لايوس Laius ملك طيبة Thebas أن ابنه سيقتله حين يكبر ويشب عن الطوق، فترقب الملك ولادة ابنه المنتظر (أوديب) وأمر الحراس بقتله وإبعاده، ولكن الحراس أبقوا على حياته ورموه في الجبل بعد أن أوثقوا قدميه وجرحوا كعبيه. وتروي الأسطورة. أن أحد الرعاة وجده في الجبال فحمله إلى ملك كورنيث الذي تبنّاه وأطلق عليه اسم «أوديب» كناية عن أقدامة المتورمة. وعاش الطفل في كنف أبيه المتبني وكله اعتقاد بأنه الابن الحقيقي لملك كورنيث.

وعندما كبُر أوديب وشبّ عن الطوق، أنبأته العرافة أنه سيقتل أباه يوما ما، فأصيب بحالة من الدهشة والصدمة، واعتقد بأن قتله لأبيه أمر محال، فقرر أن يصدّ القدر ويعاند النبوّة، وخوفاً على أبيه من نفسه، قرر أن يهجر كورنيث إلى الأبد، تجنبا للقتل المقدر، فغادر المدينة في رحلة لا عودة منها، وشاءت الأقدار، أنه التقى صدفة بأبيه الحقيقي، فوقع شجار وعراك مميت بينهما، فوقع المقدر وقُتل فيه الأب الحقيقي الملك لايوس على يد ابنه أوديب، ثم تابع أوديب طريقه إلى مدينة طيبة (مدينة الأب الحقيقي) ليتوّج ملكا عليها تكريما له، وذلك بعد أن أنقذ المدينة من وحش أسطوري يدعى أبو الهول، ثم تزوج ملكتها يوكاسته Iocaste دون أن يعرف بأنها أمه الحقيقية أيضا. وحينما كشف له أحد العرافين هذه الحقيقة، فُجع أوديب بالأمر العظيم، وأدرك بأن اللعنة الأبدية قد وقعت عليه وحلت به، فأذهله المصاب العظيم، ففقأ عينيه ندما، وهام على وجهه يندب حظه العاثر، فانطلق يجوب البراري والقفار تكفيرا على ما ارتكب من فظاعة أخلاقية. أما أمه فقد شنقت نفسها حتى الموت تحت تأثير هذه الصدمة المفجعة وهول المصيبة الأخلاقية الكبرى.

يستلهم فرويد هذه اللعنة الأوديبية، ويوظف إيقاعاتها الرمزية من جديد في تفسير نشأة القيم والأخلاق والتحريم. فأوديب يقتل الأب دون أن يعلم(قتل الأب)، ويتزوج الأم دون أن يدري (غشيان المحارم)، وهذه الجريمة المزدوجة لقتل الأب وغشيان المحرم تقوده إلى أعظم الندم فقأً للعين وشنقاً للجسد وتيهاً في مفازات الأرض تكفيرا عن الإثم والذنب. وهنا يوظف فرويد مظاهر الندم والتكفير والعقاب الذاتي الرهيب لأوديب وأمه يوكاسته Iocaste على أنه

بداية التشكل الأساسي للقيمة الأخلاقية والمحرم والأنا الأعلى.

ولا يقف فرويد عند حدود رمزية الأسطورة في بعدها التاريخي والاجتماعي، بل يتجاوز مجالها التاريخي ليوظفها في تفسير العلاقة التربوية بين الآباء والأبناء تحت عنوان «العقدة الأوديبية» التي تشكل منطلقا لنشأة الضمير والأخلاق لدى الطفل. والعقدة الأوديبية مجموعة من الأفكار والتصورات اللاشعورية المثقلة بشحنة وجدانية قوية متناقضة في مضمونها الانفعالي تجاه الأب، إذ تشتمل على شعوري الحب والكراهية المتزامنين نحو الأب، وهذا يرمز إلى الصراع الأبدي القائم بين كراهية الأب وحبه، أي، بين الخوف منه كمصدر للخطر والشعور به كمصدر للأمن في وقت واحد.

الوضعية الأوديبية:

يفكك فرويد العقدة الأوديبية إلى رمزيتها السيكولوجية، ويستخدم مفهوم الوضعية الأوديبية ليفسر لنا الصيرورة الأوديبية في المجال التربوي، وليتبناها منطلقا منهجيا في فهم الطبيعة الإنسانية بما تنطوي عليه من تكوينات وبنى وإشارات ورموز. والوضعية الأوديبية هي الحالة العاطفية للطفل التي تبدأ من الثالثة إلى الخامسة من العمر، حيث يبدي الطفل مشاعر من العدوانية والغيرة تجاه الأب قد تصل إلى الحدّ الذي يتمنى فيه موت أبيه من الجنس نفسه. فالعقدة الأوديبية، وفقا لفرويد، كامنة في الفطرة الإنسانية ومتأصلة فيها، فالطفل يميل ميلاً طبيعياً إلى الجنس الذي يقابله من الأبوين، وكل من الأبوين يميل ميلاً طبيعياً إلى الجنس الذي يقابله من الأبناء أيضاً، وهذا يعني أن الطفل الذكر يحب الأم أكثر من الأب، بينما تحب الطفلة الأنثى أباها أكثر من الأم، فالطفلة على سبيل المثال تكره أمها وتحب أبيها، في الوقت الذي يكره فيه الطفل أباه ويحب أمه.[١٠]

يؤكد فرويد في هذا السياق على خطورة الطريقة التي يتم بها الخروج من الوضعية الأوديبية وأهميتها، فطريقة التجاوز لهذه المرحلة تلعب دوراً حاسماً في تحديد هوية الطفل واتزانه الوجداني في مرحلة الرشد، وهذا يعني أن الكيفية التي يتجاوز فيها الطفل هذه المرحلة تشكل الركيزة الأساسية للتكوين السيكولوجي والأخلاقي عند الفرد، ولاسيما فيما يتعلق بنظرة الطفل إلى الحياة وموقفه من السلطة والحب والعلاقات العاطفية والجنسية.

يفترض فرويد أن الطفل في الغالب يستطيع تجاوز هذه المرحلة بسلام، وذلك

عندما يتصالح مع الأب ويتجاوز كراهيته له، ويرى، أن الطفل في الأحوال العادية يتجاوز كراهيته للأب ويتصالح معه بصورة عفوية، ومن ثمّ يكوّن علاقة صداقة وحب مع والده بدلا من الشعور بالكراهية الذي ينتابه تجاهه، وهكذا هو الحال بالنسبة للطفلة الأنثى في علاقتها بأمها(عقدة إليكترا).

تؤكد الدراسات السيكولوجية أن الطفل يتأثر كثيرا بالطريقة التي يعتمدها الأبوان في التعامل معه أثناء المرحلة الأوديبية، ويبلغ هذا التأثير مداه في المنهجية التي يعتمدها الأبوان للخروج بالطفل من هذه المرحلة التي تنتهي في السنة الثالثة من العمر، وبعبارة أخرى، تترك منهجية التعامل التربوي للأبوين مع الطفل في هذه المرحلة آثارها التي لا تمحى مع الزمن، لأن هذه الطريقة المعتمدة في التعامل مع الطفل تحدد أبعاد الصورة التي يكوّنها الطفل عن نفسه وعن قدراته في المستقبل القريب والبعيد (تصوراته ومواقفه الخاصة بجنسه وأفعاله وإمكانيات تأكيد الذات).

في هذه المرحلة الأوديبية، وفي مواجهة الرغبات العدوانية والميول البدائية للطفل، غالبا ما تعمل الأسرة على ممارسة العقاب ضد نزوات الطفل الأوديبي وفقا للتقاليد الخاصة بالعائلة (التهديد بالخصاء مثلا عند فرويد). ومع ذلك توجد أمام الأسرة إمكانيات متعددة للخروج من هذا المأزق الوجودي الذي يتمثل في بنية هذا الصراع الأوديبي. فعلى سبيل المثال يكون التسلط والمنع قوياً في العائلات الطهرية التقليدية في مواجهة هذه الرغبات الأوديبية. وعندما يواجه الطفل هذا التسلط والمنع والقمع، يستبطن لا شعورياً كل ما يتعلق بالجنس ويكبته في أعماق العقل الباطن، ولكن هذه الميول لا تفقد تأثيرها أبدا، بل تنتظر اللحظات المناسبة لتعبر عن نفسها سواء في الحلم أو في اليقظة، ولكن عندما تثور خيالات الطفل وهياماته ضد الأب (الحلم، أحلام اليقظة، الرغبة في القتل الشعور بالحقد الشعور بالكراهية) تنتابه مشاعر الندم وتغشاه إحساسات الألم، ويمتلكه تأنيب الضمير، لأن تحرك هذه الميول والمشاعر من جديد تعني له انتهاك المحرم العائلي، أو لنقل التابو العائلي، وهنا يعمل الإحساس بالذنب وتعذيب الضمير على تشكيل الملامح الأساسية للأخلاق والقيمة الأخلاقية والأنا الأعلى عند الطفل.

العقدة الأوديبية:

عندما لا يستطيع الطفل تجاوز الوضعية الأوديبية بسلام، يقع في دائرة

العقدة الأوديبية، بمعنى أنه إذا لم يستطع التصالح مع الأب وتجاوز شعوره بالكراهية إزاءه، يتحول إلى طفل أوديبي أي طفل معقّد أوديبيا، وهذا يعني أن الطفل يبقى الطفل في دائرة الصراع الأوديبي مغلوباً بشعور الكراهية ضد أبيه ورفضه له. وهذا يعني أن الطفل سيكون نهبا للعقدة الأوديبية المدمرة، وهي عقدة نفسية والعقدة الأوديبية بالتعريف: مركب نفسي مشحون بأحاسيس الخوف والقلق يتمثل في الصعوبة التي يعانيها المرء في تأكيد ذاته على نحو مستقل ومسؤول، ويترتب على هذا الأمر أن الطفل لن يكون قادرا في المستقبل على أن يثبت نفسه ويعبر عن ذاته ككائن سوي، ولا سيما فيما يتعلق بدوره الجنسي المتمثل بالأنوثة أو الذكورة. وتأسيسا على هذه الرؤية يمكن القول بأن الطفل الأوديبي لن يكون قادرا على أن يكون رجلا حقيقيا في المستقبل، وأن الطفلة لن تستطيع تمثل دورها الأمومي أي لن تكون أنثى كاملة، لأن الدور الجنسي يجب أن يتشكل في دائرة التنمذج مع الأب المجانس، فالطفل يجب أن يتنمذج على أبيه والطفلة على أمها من أجل بناء شخصية سوية ذات علاقة بدور الجنس (امرأة أو رجل). ولما كان الطفل الأوديبي لا يستطيع أن يتنمذج على أبيه ويتماهى به ويتخذه قدوة نتيجة العداوة الأوديبية (كراهية الأب) فإنه لن يكون رجلاً كامل الرجولة في المستقبل، وكذلك هي حال الطفلة الأوديبية (عقدة إليكترا).

يتناول فرويد الأواليات النفسية لهذه المرحلة، ويوظفها رمزيا في تفسير عملية تشكل الأخلاق والأنا الأعلى والضمير الأخلاقي، فالخوف من الأب والإعجاب به أيضا يقع في مرمى التشكيل الديني للفرد في مرحلة الطفولة، فهناك تشابه كبير بين صورة الله الذي يؤمن به الفرد وبين صورة الطفل المكتنزة عن أبيه في مرحلة الطفولة. فالأب بسلطته وجبروته يخيف الطفل ويعاقبه ولكنه يحبه ويحميه في الوقت نفسه. ومن هذا المنطلق يرى فرويد وجود علاقة كبيرة بين التصورات الأخلاقية وبين الفعاليات التربوية للطفولة الأولى.

وينطلق فرويد من دلالات الصراع الوجداني للطفل الأوديبي، ويرى بأن الطفل غالبا ما يتخلى إراديا عن نزواته الغرائزية ضد الأب، فيكبح جماح رغباته ومخاوفه الأولية، ولكن هذه المخاوف والنوازع، تبقى دفينة العقل الباطن الذي يبقى مسكونا بهواجس الكراهية والخوف البدائي من الأب، وترتسم هذه المخاوف والتصورات الآثمة في أعماق العقل الباطن على نحو

لاشعوري. ومن أجل الاستمرار في قهر الدوافع الوحشية الأولية، يلجأ الفرد إلى الدين والأخلاق كقوة جبارة تطرح نفسها بديلا لقوة الأب وجبروته[11]. وعلى هذا النحو، يشعر الفرد بالراحة والاستقرار عندما ينهي الصراع الوجداني بين نزعة التمرد على الأب وبين الشعور بحبه وتقديره، وغالبا ما ينتهي هذا الصراع بتغليب محبة الأب وتقديره على مشاعر الكراهية والغيرة نحوه، وهذا يشكل منطلق تشكل الوجدان الأخلاقي للطفل.

الأنا الأعلى:

يرمز الأنا الأعلى إلى الضمير الأخلاقي الذي يتشكل في دوامات الصراع بين الميول الغرائزية وبين الأوامر والنواهي الأخلاقية. ويصف فرويد الضمير بأنه «الأنا الأعلى» وهو المنطقة الأكثر قدسية في الكيان السيكولوجي للفرد، فالأنا الأعلى هو المحكمة العليا في الكيان الإنساني، وهي محكمة معنيّة بإصدار الأحكام الأخلاقية، وتوجيه الفعل الإنساني توجيها أخلاقيا ينشد الخير والحق والجمال. وإذا كان الأنا الأعلى (superego) هو الضمير الأخلاقي بعينه، فإن فرويد يرى بأن «الهو» (Id) يرمز إلى منطقة الغرائز والميول البدائية في الكيان النفسي، ويمثل منطقة الشهوة والرغبة، ويعبر عن مطالب الجسد تلبية للميول الطبيعية الغرائزية في الإنسان. وعلى هذا النحو يتجلى الأنا الأعلى في صوت الحق والضمير والقيمة الأخلاقية في الوقت الذي يعبر فيه «الهو» عن صوت الشهوة والرغبة والميل والعاطفة والهوى. وعلى هذا الأساس تتأرجح الحياة الأخلاقية في دوّامة الصراع الأبدي ما بين «الأنا الأعلى» (الضمير الأخلاقي) وما بين «الهو» المتمثل في منطقة الرغائب والميول والشهوات، إنه صراع الجسد والعقل، بل هو صراع النور والظلام في كيان الفرد النفسي.

وهنا ومن جديد تتضح الرمزية الخاصة بعقدة أوديب، وهي شبيهة إلى حد كبير برمزية القتل الأول، فالطفل يقع في كراهية الأب ويميل إلى قتله بطريقة إيهامية خيالية، أي يحسده ويكرهه ويتمنى له الموت. فالطفل يرغب بقتل الأب، ولأنه لا يستطيع ذلك عملياً، ولكن مجرد التفكير بالقتل وتمني الموت يشكل نوعاً من القتل الرمزي، وهذا القتل الرمزي، يؤدي في النهاية إلى الشعور بالذنب والندم، والشعور بالندم، كما هي حال التكفير عن الذنب، يشكلان الأصل في تكوين الأنا الأعلى والوجدان الأخلاقي عند الطفل.

وباختصار، يمكن القول، بأن الأنا الأعلى

الأخلاقي يتشكل في دوامة الصراع بين الواقع ونواهيه (نواهي وأوامر الأم والأب) وبين الهو Le ça (منطقة الغرائز والميول البدائية) حيث يؤدي هذا الصراع المستمر إلى توليد الأنا الأعلى Surmoi أي منطقة الضمير والقيم والواجب الأخلاقي. فالميول تنتهك المحرم الواقعي وهذا يؤدي إلى الندم، والندم والشعور بالذنب هو الصورة الأخلاقية الأولى عند الفرد.

خلاصة: الأخلاق بين أسطورتين:

توجد وشائج رمزية عميقة بين الأسطورة الأوديبية والأسطورة الطوطمية، فكلتاهما تنطويان على الخطيئة الأزلية الأولى لمقتل الأب، ففي الأسطورتين تنتهك المحارم، وكلتاهما تفيضان بمشاعر الذنب والندم الأزلي التي تعتري الأبناء على اقتراف الخطيئتين (مقتل الأب وغشيان المحارم)، وتلك هي المشاعر الآثمة التي توجد في أصل التحريم والتقديس والتعظيم الذي يؤسس بدوره إلى نشوء القيم والدين والأخلاق.

وهنا في هذا المقام، يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ما تنطوي عليه الأسطورتان من أبعاد واقعية، فالأسطورتان ليستا محض خيال جامح، إذ بينت دراسات ميثولوجية كثيرة، أن الأساطير ذات منشأ واقعي في جوهرها، فهي تستقي مصدرها الحيوي من الواقع، وتقوم في الوقت نفسه بالإضاءة على هذا الواقع. وما الأسطورة في نهاية الأمر سوى حكايات قديمة، نسجها العقل بالخيال وطعمها بالمعاني والدلالات، فأحياها بطاقة رمزية تمتلك القدرة على إضاءة الواقع، وتقديم تفسيرات وامضة للحياة، بما تنطوي عليه الحياة الواقعية نفسها من أسرار وخفايا وخبايا. فمقتل الأب الأول ليس حقيقة أنتروبولوجية فحسب، بل هو حقيقة نشهدها في عالم الحيوانات وتجمعاتها الأساسية، ولاسيما عند بعض جماعات القرود والأسود وأفراس النهر، حيث تكون العلاقات الجنسية مقتصرة على الذكر الأقوى في الجماعة، ومحرمة على غيره من الذكور. وهذا الأمر ليس غريباً أيضاً عن الحياة الاجتماعية للإنسان تاريخياً، ففي العهود الإقطاعية الحديثة نسبياً من تطور المجتمع الإنساني، كان الإقطاعيون في كثير من المقاطعات في أوروبة وغيرها يمتلكون الحق-بل الواجب أحياناً- في فض بكارة أي عروس قبل زفافها النهائي وذلك تأكيداً للحق الأبوي في التملك والسلطة.

يعتقد بعض المؤرخين، في هذا السياق، بأن قصة أوديب تمتلك أصلاً تاريخياً حقيقياً، ومع ذلك يستحيل تخليصها من العناصر الأسطورية التي شابتها وأضفت

عليها هـذا الزخم الرمـزي، وقد ورد ذكر مأسـاة أوديـب في «الأوديسـة» لهوميروس تلميحاً مختصـراً جداً، وفيها أنه قتل والده وتـزوج والدته مـن دون أن يعلـم، وأن أمه يوكاستـه انتحرت شنقاً حـين تكشفت لها الحقيقة؛ أما أوديـب فقد ظل يحكم طيبة حتى مـات. وقد وصفهـا أرسطو في كتابه «الشعـر» Peri Poiētikēs بأنهـا أكمـل نموذج لمأساة عرفها الإنسان.

وممـا لا شك فيـه أن أسطـورة أوديب قد شكلت موضوعاً حيوياً لقضايا متعددة، أبرزهـا: قضيـة المصير ومسألـة القضاء والقدر. فكثير مـن الباحثين تناولوا مسألة الحريـة والقدرية في مسؤوليـة أوديب عن جريمتـي قتل الأب وغشيـان المحرم. ومن الواضح أن القصة تتنبأ بمصير أوديب حتى قبل أن يولـد، وهذا التنبؤ يمكـن أن يقرأ بوصفه استلابـاً لحرية الإنسان، أو بوصفه حكم القدر الذي لا مهرب منه. وهذا الأمر ينسحـب بوضوح على أسطورة القتل الأول، حيث كانت هـذه الأسطورة انعكاساً طبيعياً للحياة الاجتماعية لـدى القبائل البدائية، وليـس غريبـا أن تكـون هـذه الأسطورة حقيقة أنتروبولوجية دامغة عاشتها الشعوب الإنسانية في مراحل تاريخية محددة.

وممـا لا شك فيـه أن نظريـة فرويد، حول نشأة الأخـلاق والحضارة، واحدة من نظريات عديدة، حاولـت كل منها أن تقدم رؤيـة محددة، وتصور شمولي، لعملية انبثاق الحضارة والأخـلاق في المجتمع الإنساني. ولكـن نظرية فرويد تمتـاز على ما غيرها بأنهـا اعتمـدت الطاقة الرمزيـة المكتنزة للأساطـير في تفسير عدد كبير من القضايا الوجودية للمجتمعـات الإنسانية، فاكتست بطابعها الجمالي والسحري الذي جعلها من أكثر النظريات انتشارا في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وممـا لا شك فيـه أن هـذه النظرية، كغيرها من مقولات فرويـد وتصوراته، قد تعرضت للنقد السيكولوجي والسوسيولوجي دون انقطـاع على مدى قرن مـن الزمان، ولكـن هذا النقد المتواصـل المتدفق أضفى على النظرية والمقولات الفرويدية مزيدا من السحـر والبهاء والقوة، فكانت نظريته هذه أشبه بالنوابض الفكريـة التي ما أن تلمس حتى تنهض بقوة أكبر مما هو متوقع لها.

ويمكـن القول في نهاية هـذا المقال: إن فرويـد قد أحسن توظيـف الرموز المكتنزة في الأساطـير، واستثمرهـا بطريقة ملفتة للنظـر في استكشافـه لجوانـب خفية من الحياة الإنسانية على نحو يتصف بالرشاقة

والجمال؛ ولا ريب في القول: بأنه كان يمتلك قدرة مذهلة على التوليف الخلاق بين الرموز والأساطير في تفسيره لنشأة الدين والقيم الأخلاقية والحضارة، وقد تميز التفسير السيكولوجي الذي قدمه لمسألة الأخلاق بطابعه الجمالي والفلسفي الذي كان وما زال مثار جدل وحوار على أشده منذ عهد فرويد حتى اللحظة الراهنة.

الهوامش

١- إشارة إلى قتل الأب والتهامه من قبل الأبناء.

٢- احتفالات وطقوس تجريها القبائل البدائية لعبادة الأسلاف والأجداد. و«الطوطم» رمز يأخذ صورة حيوان أو نبات يرمز إلى روح الأب أو الجد.

3- Durkheim, E., Les Formes élémentaires de la Vie religieuse, Paris, puf, 1968.

٤- «التابو» يرمز إلى المحرم لدى القبائل البدائية.

٥- إذا كان الطوطم صقرا على سبيل المثال فهذا يعني تحريم قتل أو أكل جميع الصقور.

٦- سيغموند فرويد، الوثن والمحظور، نيويورك: ماكميلان، ١٩١٨.

7- Sigmund FREUD , Totem et Tabou, Interprétation par la psychanalyse de la vie sociale des peuples primitifs ,(Traduit de l'Allemand avec l'autorisation de l'auteur en 1923 par le Dr S. Jankélévitch. Impression 1951).

٨- جيانا كردي، الحضارة والكبت من وجهة نظر التحليل النفسي، موقع القديسة تيرزا،
http://www.terezia.org/section.php?id=1127.

٩- رندا قسيس، في أصول الأخلاق: نظرة انتروبولوجية، ميدل ايست اونلاين، ٢٠٠٩/٦/٦،
http://middle-east-online.com/?id=79615

١٠- هناك مثل شعبي يقول «البنيّة تخطف قلب أبيها»؛ وفي أحد الأمثال العربية «كل فتاة بأبيها معجبة»، وفي هذا تعبير عن الميل الوجداني المتقابل بين الجنسين من الآباء والأبناء.

١١- سيغموند فرويد، الوثن والمحظور، نيويورك: ماكميلان، ١٩١٨.